نسيج التاريخ الإسلامى
ومنظومة الحضارة الإسلامية

* لم يبذل حتى الآن جهد موضوعى كاف فى مجال اعتماد التاريخ منطلقًا من المنطلقات الأساس لنهضة الأمة الإسلامية !!

ففى المجال الثقافى ما زال تاريخنا الإسلامى يُتعامل معه على أساس الانتقاء المذهبى، وإسقاط الأيديولوجية المسبقة، وعلى أحسن الفروض يتعامل معه على أساس أنه مجرد ذاكرة لماضى الأمة، وأن وقائعه يجب أن تخضع لمعايير التوثيق السليم، والعرض المنهجى التقليدى .

وفى المجال الدراسى التعليمى ما زال تاريخنا بعيدًا عن بناء إنسان مسلم عالمى الرؤية والأهداف؛ يتلقى التاريخ على أساس أنه تاريخ كل المسلمين، وأنه المحاولة البشرية - بإيجابياتها وسلبياتها - لتطبيق المبادئ الإسلامية فى الحياة، وأنه الترجمة الصادقة لفاعلية المسلمين فى التاريخ الحضارى .

إنه يقدم فى كل بلد مسلم تقديمًا خاضعًا لنظام الحكم، وتُلوى عنق وقائعه لتخدم التوجه السياسى لكل بلد، ولتساعد على تخريج جيل يؤمن بالنظام السائد، وببعض ما يرضى عنه النظام من فترات الماضى!!

* إنها لكارثة حقًا أن تشكل مؤسسات للعرب جميعًا وللمسلمين جميعًا، وأن تعلو أصوات كثيرين بوحدة المسلمين وبالتضامن الإسلامى، بينما يفرض على تاريخ المسلمين أن يسخر لتفتيت المسلمين وغرس الإقليمية والقومية

العنصرية، بل وتبرير بعض المذاهب المادية والعلمانية والإلحادية والباطنية التى فرضها خصوم المسلمين عليهم من جراء ضعفهم وتمزقهم، وعدم تعبيرهم التعبير الصحيح عن حقائق الإسلام ومنهجه فى بناء الفرد، والأمة، والحضارة.

ووسط هذا الإجهاض لدور التاريخ فى بناء نهضة الأمة تقف هنا وهناك محاولات قليلة تشبه الشموع وسط ظلام حالك.

إنها محاولات تحاول تعميق النظرة فى التاريخ نفسه، وليس تشريحه وفق خلفية مسبقة وتوظيف رسمى أو مذهب محدد...

وهى تحاول أن تنظر إلى وحدة التاريخ الإسلامى وتشابكه على أساس وحدة الحضارة الإسلامية، حتى وإن اختلفت أساليب التعبير وأصداء الإيقاعات...

* فمن فوق مناهج التمزيق الذى يعتمد عناصر الدولة، أو القوم، أو الأرض، أو اللغة ـ وحدها ـ أو كلّ عنصر على حدة؛ يقوم التشريح الإسلامى للتاريخ على أساس (الحضارة) باعتبارها الوحدة القابلة للتنظير والتفسير الشمولى الموضوعى...

* ولأن الإسلام كان دائمًا ـ حتى وإن خانته طائفة حاكمة أو طائفة مذهبية خارجة على انسجام الحضارة وأصولها ـ دينًا ينساب فى كل أركان الحياة، ويتفاعل انطلاقا من عقيدة المسلم الفرد وإيمانه وشريعته فى مستواه وفى مستوى الجماعة...

ولأن الإسلام دين ملتصق بواقع الناس وشتى أركان حياتهم على هذا النحو المعروف، فإن الإسلام كان ـ دائما وما زال ـ يشكل ـ بنظمه ومؤسساته، وطوائفه المؤمنة، والعالمة، والصانعة، والزارعة، والمجاهدة ـ الخيوط الثابتة التى تصنع نسيج المجتمع وتحكم علاقاته، وثوابته، وعاداته، وتقاليده.

وهذا النسيج المتصل بأركان الحياة الفردية والاجتماعية من كل زواياه لا يتأثر إلا قليلاً بالتحولات التى تقع فى المستوى السياسى، ولا سيما وأنه إلى ما قبل التخلف الحضارى العلمى والفكرى الذى وقع فيه المسلمون فى مواجهة الحضارة الأوروبية الحديثة؛ كان المسلمون ـ على الرغم من كل ما لحق بهم من هزات

وتقلبات ـ هم أصحاب الحضارة العليا، وهم أساتذة الدنيا، وحتى لغتهم كانت الأولى فى العالم التى تعتبر لغة الثقافة والحضارة !!

* وهذه الحقيقة الثابتة تُسقط ـ من ثمَّ ـ كل التفسيرات السطحية التى وقفت كثيراً عند بعض المعابر السياسية فى التاريخ الإسلامى السياسى، مثل ما سمى (بالفتنة الكبرى) بين علىّ ومعاوية (رضى الله عنهما) وما سمّىَ بقيام دولة بنى أمية، وظهور الملك العضوض وآثاره ـ فى رأى بعضهم ـ ومثل سقوط بنى أمية وقيام بنى العباس، أو ظهور المماليك أو سقوطهم، إلى أن يصل الأمر إلى سقوط بنى عثمان، وقيام عصر الدويلات الطائفية الأخيرة، وهو الحدث الذى يعتبر ـ بحق ـ من التحولات التاريخية الأسيفة، ليس لمجرد سقوط العثمانيين وخلافتهم، بل لأن هذا السقوط تبعه تنحية شريعة المسلمين على المستوى الرسمى، وتفكك المسلمين على المستوى العقدى والفكرى، وخضوعهم لتيارات (أيديولوجية) معادية للثوابت الإسلامية، وعجزهم عن المواجهة الموازية للتحديات الحضارية التقنية، والعلميّة، والسياسية، والعسكرية، التى يتمتع بها الذين أسقطوا خلافة بنى عثمان .

* * *

* إن سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) على يد التتار لم يكن تحولاً حضاريّا، وإن كان تحولاً سياسيّا؛ ذلك لأن مبادئ الحضارة الإسلامية لم تلبث أن تفوقت على الغزاة المنتصرين، وحولتهم إلى جنود لها . . . كما أن العباسيين والأيوبيين والمماليك؛ مثّلوا جميعًا الحضارة الإسلامية على اختلاف فى مستويات التعبير !!

فخط السياسة غير خط الحضارة إذن !!

وبالطبع فليس بوسعنا أن نتجاوز معبر سقوط الأندلس وغرناطة سنة (٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م) فهنا صفحة طويت وامتزجت بقايا إشعاعاتها بأرض المغرب العربى . . . ومع أنها (محطة) حقيقية يجب الوقوف طويلاً عند عوامل سقوطها، إلا أن المسلمين لم يتحدثوا عنها كما تحدثوا عن قيام بنى أمية وفتنة على ومعاوية (رضى الله عنهما)، مع أن الثانية ليست إلا تغيّراً فى الشريحة السياسية

والأسلوب السياسى فى الحكم، وقد يكون تغيراً له مبرراته التاريخية ؛ بينما كانت الأولى (سقوطًا) و (انقطاعًا) حضاريًا بكل معنى الانقطاع الحضارى فى هذا الركن الجنوبى من أوروبّا . . . وللأسف فإن المنهج الخطأ جعل كثيراً من المسلمين يتحدثون عن أمجادهم فى إسبانيا، دون أن يقدموا دراسات تفصيلية جادة ومكثفة عن أسباب سقوط الأندلس !!

* إنّ التفسير الإسلامى للتاريخ يجب أن يعيد ترتيب «المحاط» فى دراسة التاريخ الإسلامى اعتماداً على (وحدة الحضارة) من جانب، وعلى (الحضارة) ـ كوحدة ـ من جانب آخر !!

(فجسم) الحضارة الإسلامية الذى هو الكيان المادى للمسلمين من تراب وإنسان يجب أن ينظر إليه على أساس أنه وحدة . . .

كما أن (عقل) الحضارة الإسلامية، وما أفرزه من إبداعات فى الفكر، والفنّ، والأدب، والفقه، والفلسفة، والعمارة، والزراعة، والصناعة يجب أن ينظر إليه ـ كذلك ـ كوحدة . . .

و(روح) الحضارة الإسلامية التى هى جوهرها وقلبها، هى وحدة كذلك بكل ما تضمّه من عقيدة وأخلاق وتشريع وصياغة روحية للحياة ؛ تؤمن بالغيب كما تؤمن بعالم الشهادات، وتستعين بذلك على صياغة الحياة، وتؤمن بوجود الله، وبعنايته، ورعايته لحركة الإنسان فى التاريخ . . .

* إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يساعد الإنسان، و لا يكبّله، ويحنو على خطاه، ويدفعها للأمام، ولا يجمدها أو يشدها إلى الخلف . . . وما الأنبياء والمرسلون إلا منظمون لحركة الإنسان حتى لا يحاول القفز من فوق السُّنن الكونية، وضوابط الحركة الاجتماعية، ويعبد ذاته، ويجعلها هدفًا، وينسى وظائفه الوجودية، وارتباطاته العليا بمسؤولية إنسانيته وبوظيفة سامية فى هذا الكون . . .

* إنّ ما يقدمه الأنبياء ليس تكبيلاً ـ كما يفهم الملحدون المتخلفون ـ وإنما هو شارات الطريق وخريطة الفعل الحضارى التى تفرق بين المنطقة الصالحة للسّير، والمنطقة المهلكة التى يموت فيها الإنسان، وتنهار الحضارة فى أوحالها ورمالها المتحركة!!

ونحن لم نجد فى التاريخ حضارة مشت بدون هذه الشارات والضوابط، وتجرأت على المناطق الحرام ؛ إلا كان مصيرها الزوال مهما امتد بها العمر، وقد ورثها قوم آخرون مضوا وفق سنن الله والضوابط والشارات التى وضعها المرسلون من الله سبحانه وتعالى .

* ويعدّ من أهم ما يلتزم به التفسير الإسلامى للتاريخ أن يقسّم تاريخ البشرية على ضوء تفاعلها مع رسالات الأنبياء ومستوى إيمانها بها، ومحاولاتها تقديم صياغة للحياة على ضوء الثوابت العقدية والتشريعية التى قدموها، أو - من جانب آخر - خروجها على هذه الثوابت وما أصابها فى مسيرتها من جرّاء هذا الخروج .

* وعندما يصل التاريخ البشرىّ - من مراحل تعدّده - إلى مرحلة نزول القرآن وظهور النبى محمد ﷺ ؛ فإنه يكون قد انتهى إلى المرحلة القرآنية التى تتألق فيها الرسالة النبوية والإسلامية الشموليّة، وبدءاً من هذا التاريخ تبدع الإنسانية المسلمة حضارة تمتد إشعاعاتها إلى كل قارات الأرض .

ونحن نرى البشرية - هنا وبدءاً من هذه المرحلة الفاصلة - تنقسم بوضوح شديد أكثر من أى مرحلة سابقة إلى (إسلام) و(كفْر) أو (إسلام) و (وثنية) . . . وفى هذه المرحلة التى تعكس الهيمنة القرآنية نرى امتزاج العقل بالوحى، ونرى تكاملاً يقدم للبشرية نموذجًا حضاريًا وإنسانيًا متوازيًا؛ يتكامل فيه إبداع الجسم مع العقل مع الروح . . .

* وعندما كان المسلمون يمرون بمراحل التخلف كان التوازن يختل، ويتفوق رصيد الجسم على رصيد العقل، أو رصيد الروح، وكانت النسب التعادلية تتعرض - بالتالى - لخلل جوهرى، ينتهى إلى إفراز إبداع حضارى تنقصه بعض خصائص حضارة الإسلام . وقد تمرّ فترة من الوقت، ولا تلبث الموازين القرآنية الثابتة التى تكفّل الله بحفظها أن تفرز مصلحين يعيدون الفعاليّة الإسلامية إلى توازنها فى إطار ما يقوى عليه البشر، وما تسمح به خصائصهم الإنسانيّة .

ولا بدّ، ونحن نؤطر للتنظير الإسلامى للتاريخ فى المرحلة القرآنية ؛ أن ننظر إلى العالم المسلم كوحدة، وأن ننظر إلى العالم غير المسلم كوحدة منفصلة أو

متقابلة . . . فهنا حضارة إسلام، تمثلها أمّة مسلمة أخرجت للنّاس . . . وهناك حضارة قائمة على التصورات الوثنية أو العقلية المحضة ؛ ولم يستطع اللاهوت المسيحى أن يخضع التاريخ الوسيط أو الحديث لأطروحاته ؛ لأنه ـ أولاً ـ كان معزولاً عن الدنيا، ولأنه ـ ثانيًا ـ لم تكن له شريعة فاعلة، ولأنه ـ ثالثًا ـ لم يكن محتضنًا للعقل ؛ بل كان محاربًا له، ولأنه ـ رابعًا ـ امتزج بالوثنية، وفقد ذاته الروحية وتوحيده الإلهى منذ مجمع نيقيّة (٣٢٥م) . . . كما أنّ اليهودية لم يكن لها امتداد عالمى، أو مشروع حضارىّ إنسانىّ ؛ بل كانت ـ دائمًا ـ عقيدة عنصرية قومية مغلقة!!

* * *

* إنّه على امتداد القرون التالية لميلاد الإسلام ٦١٠م لم يكن هناك مشروع حضارىّ واضح القسمات والمنهج غير الحضارة الإسلامية . . .

ولو أنّ المسلمين لم يصابوا بالهمود الحضارىّ، والتآكل الداخلىّ، والغياب عن فقه السنن الاجتماعية والكونية ؛ ولو أنّهم نجحوا فى دخول عصر التقدم التقنى الحديث، مسلحين بالعقل، والروح، والمادة، مازجين بين القراءة الإلهية التى قدمها الوحى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، والقراءة الكونية ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣ ـ ٤]، لو أنّهم فعلوا ذلك لأمكن أن يتفوقوا على اليابان، وعلى النماذج الغربية الموجودة أمامنا . . .

* وفى هذا الإطار فإن تجربتهم فى التاريخ كانت ستقدم لهم كثيرًا من مقومات الإقلاع الحضارى، وكانت ستكشف لهم ـ من خلال رصد الإيجابيات والسلبيات ـ الخصوصية الحضارية التى لن ينطلقوا بدونها، وكانت ـ بالتالى ـ ستوفر عليهم هذه الفوضى الفكرية، وهذه التبعيات المتتالية للفكر الأوروبى : شرقية أو غربية، وهذه الازدواجية المتناقضة بين الحكام والمحكومين، وبين بعض شرائح الحضارة الإسلامية التى تسمى دولاً وبعضها الآخر، وبين بعض المفكرين والمفكرين الآخرين، وكان فى الإمكان أن يتحول الخلاف إلى تكامل، واختلاف الوسائل إلى مصب واحد فى نهاية الأمر، ولربما نجح المسلمون فى أن يوفروا

قرونًا ثلاثة ؛ تاهوا فيها فى التاريخ ، وبددوا طاقات مادية ومعنوية لا يعلم حقيقتها إلا الله .

* * *

ولكى تكون نهضة الأمة حقيقة ، فلا بد لها من دراسة ماضيها دراسة واعية شاملة ، وهذا يقتضى منها بعث تجربتها التاريخية بعثًا جديدًا ، وتمثلها تمثلاً جديدًا ؛ لا يُكتفى فيه بالرصد السياسى ، ولا بسلامة الرواية والنقل ، ولا بالنقد الجزئى للمتن ؛ بل بالاستلهام الشامل لماضى الحضارة الإسلامية ، عبورًا بسلامة الوثائق ، وبالنقد الجزئى ، ووصولاً إلى تفسير إسلامى موضوعى للتاريخ .

* * *

إن الوثائق لن تكون هى الأساس فى المنهج التنظيرى الذى ينشد التاريخ ؛ بل إنّ أسهل شىء يقوم به الباحث أن يصل إلى المعلومات «الموثقة» ثم يضمها إلى بعضها ، ويقدم بعد ذلك إطارًا قد التصقت وقائعه فصار تاريخًا .

إن الوثائق - بلا ريب - هى بعض عمل المؤرخ ، لكن الأهم فى عمل المؤرخ أن يعيش التاريخ ، وأن ينقله إلينا حياة نابضة نكاد نراها ونلمسها ، ونشعر بكل تفاعلاتها وأركانها . وبما أن حياة الناس فى التاريخ لم تكن جداول هندسية أو أرقامًا ميتة ، أو جيوشًا منضبطة الحركة والإيقاع ؛ فإن على المؤرخ أن ينقل إلينا التاريخ بكل بشريته وأمواجه المتلاطمة ، والبواعث الفكرية ، والنفسية التى تقف وراء كل موجة .

إننا نقف - بيقين - مع المؤرخ الكبير (فلهام دلتاى) فى مطالبته المؤرخ أن يستحضر الحياة مرة أخرى ، وأن يحيا الحياة من جديد فى نفسه وإلا فقد التاريخ ماهيته وجوهره» ، وبالتالى لن يكون مؤرخًا حقيقيًا إلا من أوتى عمقًا وسعة فى حياته الروحية الباطنية ؛ يمكنانه من أن يحيا تجارب الماضى مهما يكن من تنوعها وشدتها ، و من أوتى فيضًا وخصبًا فى هذه الحياة ييسران له بعث الحياة فى هذه

المادة الميتة (الوقائع) التى استحالت إليها الحياة الماضية، ولم يعد أمامه غيرها[1].

لكن (دلتاى) لم يقدم لنا الوسائل الكافية لإخراج الماضى من موته إلى الحياة. . . إنه يرشدنا إلى أن (الفرديّة المطلقة) القائمة على عدم التجانس وعلى صعوبة التركيب هى السبيل لهذا الإحياء ؛ «فكما أن برجسون قد قال بأنّ الحىّ يمتاز عما هو مادى بأنه يكوِّن كُلاّ مستقلاّ مقفلاً ؛ لأنه مركب من أجزاء غير متجانسة يكمل بعضها بعضًا فكذلك يقول (دلتاى) : إن كل فرد يكون كلاً مستقلاّ مقفلاً» .

وعند (دلتاى) أن العظماء ما كانوا عظماء إلاّ لأنّهم استطاعوا أن يجمعوا فى نفوسهم كل التيارات الروحية التى تضطرب بها روح الشعب أو الحضارة التى ينتسبون إليها، ليس عن طريق الإيغال فيه ؛ لأن عملهم إنما هو تحقيق لروح العصر فيصبحون ممثليه[2] .

وعلى أساس هذا التحديد الذى ذهب إليه (دلتاى) كان الشعراء هم أقدر الناس ـ فى رأيه ـ على تصوير الحياة فى كل مظاهرها .

لكن رأى (دلتاى) ـ فى أن (الفردية) التى تعنى أنّ الفرد هو (مجتمع مصغر)، أو أن الفرد هو الممثل الصحيح والكامل للحضارة ـ رأى فيه مبالغة، ففى كل مجتمع شذوذ يعبّر عن النوازع البشرية الخاصة التى قد لا يمثل أصحابها حضارتهم، ومن جانب آخر فإنّ (الشعراء) ليسوا الممثلين الواقعيين لحضارتهم ـ كما ذهب (دلتاى) ـ وإن مثلوا بعض آمالها وآلامها .

بل إن تقدير الثوابت الحضارية فى كل مجتمع شرط ضرورى لإعادة تمثّل الماضى وإحيائه، ومع إحياء الإيقاعات الفردية المتنوعة، فإن الفقه الموضوعى بروح الحضارة، ومسلماتها، وبيئتها، ومناخها الفكرى والنفسى والروحى ؛ هو أكبر ضمان لإمكانية استحضار التاريخ وتمثله، ذلك لأن البشر العاديين عندما

(١) عبد الرحمن بدوى: شبنجلر، ص : ٤٠ .
(٢) المرجع السابق. ص: ٤١، ٤٢ .

يعبرون عن فرديتهم فإنما يعبرون فى فكرهم وسلوكهم عن إطار حضارى ينتمون إليه . . . إنهم أفراد وسط إطار عام، وهم يتحركون فوق أرض وروح فى سياق واحد .

إن العقائد والأعراف والتقاليد الراسخة فى كل حضارة هى التى تصوغ - إلى حد كبير - حياة الناس، ومن الصعب إدراك التنوع والفرديّة دون ربطهما بأطرهما الثابتة التى تشكل الجزء الأكبر من مساحة توجيه الحياة وصبغها .

وباستثناء القلة الشاذة، والمتمردة والمنسلخة فى كل حضارة، فإن مجموع أبناء الحضارة الذين يتنوعون فى التعبير، ويخضعون - فى الوقت نفسه - لثوابت فى التصور والسلوك تجعل منهم ممثلين لحضارة واحدة !!

إن حضارة المسلمين تقوم على قيم تتمثل فى أفكار وأنماط سلوكية، وأماكن تمارس فيها هذه السلوكيات، ووسائل تعبير مختلفة من الفكر ؛ أما نماذج بشار بن برد، وأبى نواس، وابن الراوندى، وجماعات الزندقة، والحشاشين، والباطنيّة ؛ فهى الإيقاعات الشاذة المنسلخة .

لكن باستثناء هؤلاء وأمثالهم ؛ فإن مجموع أفراد الأمة يعبرون عن إطار الحضارة الإسلامية . . .

فالعبادات المختلفة ترتبط بأزمنة وأمكنة وسلوكيات وصياغة لنشاطات الحياة وَفْق تعاليم الإسلام . . . وقد كان الناس يلتزمون بها ويبرمجون حياتهم فى الزمان، والمكان والعمل وفقها .

وتأتى النظم الإسلامية فى المعاملات والسياسة والاقتصاد لتحدد أنماطًا سلوكية وفكرية تتكامل مع توجيهات العبادات .

وفى الوقت نفسه فإن مختلف العبادات والمعاملات تقف على أرضية عقدية تحكم المسلم فى فكره وسلوكه - بنسبة إجمالية - وتحدد له مجال الحلال والحرام .

فمن المستحيل - على سبيل المثال - فى مجتمعات المسلمين - فى شتى عصورهم - أن تظهر علاقة الرجل بالمرأة على النحو الذى ظهرت به فى الحضارة الإغريقية،

أو تظهر به الآن فى الحضارة الأوروبية الحديثة . وفى المجتمع الإسلامى لم يكن للربا السيطرة على الحياة الاقتصادية كما كان الحال فى سيطرته على حياة العصور الحديثة . وأيضًا فإنه لطبيعة المبادئ الإسلامية فى التكافل الاجتماعى - من صور الإحسان الإلزامى، والزكاة، وحق الضيافة، والماعون، والأرحام، ونظام الميراث، والجار - بقى المجتمع الإسلامى بعيداً عن ظاهرة الإقطاع والصراع الطبقى التى كان عليها حال العصور الوسطى .

وهكذا - فى تصورنا - يمكن استحضار الحياة الماضية، واستعادة التاريخ عن طريق رصد الفردية المطلقة ؛ بكل ما تمثله من ذاتية مغرقة، أو متجانسة بتعبير (دلتاى) تتفاعل مع الكل الاجتماعى والحضارى . . لكن ذلك لا بد أن يتم فى إطار المنظومة الأساسية التى تتشكل منها حركة الحياة الفكرية والثقافية التى تصوغ العادات، والتقاليد، وبقية الأنماط السلوكية الاجتماعية .

* * *